١٤

البر

ضاقت الدار باليتيم وحاضنته بعد أن أقفرت من أمة آمنة؛ فضمه جَدُّه الشيخ إليه وكان به حفيًا[١] وعليه حريصًا، يُكرمه ويؤثره بالخير ويمنحه من الحنان والود ما كان يفيض به قلبه الكريم، وكأنه كان قد جمع فى قلبه نصيب ابنه عبد الله من حبه أكثر من ست سنين يَزيدهُ ويُنميه، حتى إذا ضمّ الصبى إليه أخذ يمنحه هذا الحب ويحتضنه بهذا الحنان. وأخذ الطفلُ يحس ذلك وينعمُ به، ويألفُ جده ويطمئن إليه بل يطمع فيه، ويبلغ من الجرأة عليه ما لم يكن يبلغه صغارُ بنيه وكبارهم. كانوا لا يَدنُون منه إلا أن يُدنيهم، ولا يجلسون منه إلا مجلس الإكبار والإجلال، وكان الطفلُ يدنو منه متى شاء، وينصرفُ عنه متى أحب. وتبلغ الجراءةُ به أن يسبقه إلى مجلسه فيجلس فيه ويستأثر من دونه بالفراش. وكان أعمامُه وعَمَّاتُه يرون منه هذا فيحاولون ردَه عنه وتأديبه بآداب الأسرة، ولكن الشيخ كان يكفهم عنه ويقول: دعوا ابنى إنه ليُؤنِس مُلكًا.

ولم يكن هذا الشيخ يسميه إلا بهذا الاسم الحلو، كان إذا تحدث عنه قلما يذكر محمدًا أو أحمدَ، إنما كان يقول جاء ابنى وذهب ابني. وكان يقول (لبركة): استوصى بابنى. وكان يقول لأبى طالب: احتفظ بابنى. فليس غريبًا أن يُلم المرضُ بالشيخ ويُثقُلَ عليه فيكتئب اليتيم ويمتلئ قلبهُ حزنًا وألمًا. وما يمنعه أن يكتئب وما يمنعه أن يحزنَ ويألم، وقد كان يعيش فى ظل جده عيشًا إن لم يكن يُسرًا كله ودَعةً كله، فقد كان حبًا كله وحنانًا كله! ويصبح الشيخ ذات يوم مثقلاً مكدودًا يُحس كأن الحياة تفارقه، وكأن الموت يسعى إليه، فلا يشك فى أن هذا اليوم آخرُ عهده بالدنيا. هنالك فكر الشيخ فى هذا الدهر الطويل الذى أنفقه بين الناس جاهدًا فى الخير ما استطاع، باذلاً معروفه ما وَسعه البذل، مُطوفًا فى أقطار الأرض بتجارته تجارة قريش، ومقيمًا فى مكة بين نسائه وبنيه، يذهب من داره إلى المسجد ويعود من المسجد إلى داره، لا يغدو إلا مُفكرًا فى خير، ولا يروح إلا مفكرًا فى معروف. والناس من حوله ينعمون ببره بهم وعطفه عليهم، فيحبونه ويؤثرونه ويُصْفونه المودة ويَصْدُقونه الولاء. وفكر الشيخ فى هذه المحن والخطوب التى ألمت به وألحت عليه، فلم تُلِن قناتَه ولم تَفلُل حده، وإنما تركته كما لَقِيَتْه صُلبًا جَلدًا حازمًا ماضى العزم، كأنه الشجرة العظيمة قد ثبت أصلها فى الأرض وامتدت أغصانها القويةُ فى الجو، فهى مستقرةٌ فى مكانها تختلف عليها العواصف فلا تضطرب ولا تميل. وفكر الشيخ فى ابنه عبد الله كيف كان يحبه ويألفه ويضن به على المكروه، وكيف لم يمنعه هذا الحب من أن

---

(١) حفي به: معنى به يسأل عن شؤونه ويكرمه.

يقدمه ليوفى به ما كان قد فرضَ على نفسه من النذر، وكيف جد فى ذلك، وجدّ الفتى فى الطاعة والإذعان، حتى اقترح عليه الفداء، وكيف فادى ابنه فغالى فى الفداء، وكيف اغتبط وابتهج حين قَبلَ الآلهةُ فداءه وتركوا له ابنه، ثم كيف أرسله إلى الشام ليموت فى يثرب بعد أن اتجر فأفاد ربحًا كثيرًا.

نعم! وفكر الشيخ فى آمنة كيف خُطبت للفتى، وكيف احتملت فقده كريمةً أبية. ثم فكر فى هذا الطفل اليتيم وفى هذه الأطوار الغريبة التى أحاطت بمقدمه إلى الأرض ودخوله فى الحياة – فكرَ فى هذا كله فرضى على نفسه كما رضى عنه الناس. وحَزِنَ على نفسه كما حزن عليه الناس، وكان واثقًا بأن ما رأى من الأحداث التى لم يرَ الناسُ مثلها لم يُرسل إليه عبثًا ولم يُسلط عليه إلا لأمر يُراد. وكان يُقدر أن هذا الأمر الذى يُراد إنما يُراد بابنه اليتم. وكانَ يَوَدّ لو مُدت له الحياةُ فرأى من أمر ابنه ما لم يكن يَشك فى أنه واقعٌ محتوم. ولكن الحياة لا تُنال بالرغبة، والموتَ لا يُدفع بالكره، والأيام لم تُعط الناس عهدًا بأن تكون عندما يُريدون. وهل مُدت أسباب الحياة لعبد الله حتى يرى ابنه وليدًا! بل هل مُدت أسبابُ الحياة لعبد الله حتى يعلم أنه قد ترك وارثًا! لقد مات وهو يعلم حقّ العلم أنه لم يُعقب، ولو قد كشف عنه الحجاب لعلم أنه أعقب لا كما يُعقب الناس. وهل مُدت أسباب الحياة لآمنة حتى تسعد بابنها اليتيم! لقد ولدته فاختطفته منها المرضع واحتفظت به زمنًا طويلاً. ولم تكد الأم تَنعمُ بابنها حتى أقبل الموت فقطع ما بينهما من سبب، وأبى إلا أن ينقلها إلى جوار زوجها الذى طالما كانت تذكره وتفكر فيه. فلم تُمدّ أسباب الحياة للشيخ وقد أنفق فى الأرض أكثر من مائة سنة ذاق فيها خير الحياة وشرها، وبلا فيها حُلوَ الحياة ومُرّه! لِمَ تُمد له أسباب الحياة وكل شيء من حوله ومن حول الطفل يدلّ على أن حياةَ هذا الصبى لن تكون كحياة غيره من الصبيان، يسيرةً لا عوج فيها ولا التواء، وإنما ستكون حياةً فيها امتحان وبلاء، وفيها تصفية وتطهير! لقد فقد أباه وفقد أمه، وهو الآن سيفقد جده، وسيصبح بعد ساعات يتيمًا حقًا، ووحيدًا حقًا، ليس له من يعطف عليه أو يرق له إلا هذه الأمةُ التى تحضنه، وعمه الذى سيكفله كما يكفل الأعمامُ أبناء الأخوة!

وكان الشيخ يفكر فى هذا ويحس أنه يزداد ثقلاً على ثقل، ويشعر كأنه يُفارق ما حَوله ومَن حوله قليلاً قليلاً، لا يتقدم فى الزمان لحظةً حتى يخطو إليه الموت خطوات. وكان الشيخ يحب أن يسمع من أصوات الناس أكثرًا ما يستطيع أن يسمع قبل أن يغمره الموتُ فلا تصل إليه الأصوات. وكان أحب الأحاديث إلى الشيخ فى هذه اللحظات القليلة الباقية حديثُ نفسه، فيدعو بناته ويطلبُ إليهن أن يبكينه كما يبكى النساء الموتى، ويُلح عليهن فى ذلك؛ لأنه يُريد أن يسمعهن أو لا يريد أن يسمع رثاء نفسه. ولعله لو استطاع أن يرثى نفسه بنفسه لفعل. وهؤلاء بناته من حوله يرفعن أصواتهن نادبات نائحات، معدّدات مآثره ومفاخره، مصَوِّرَات هذا لحزن العميق الذى يسعى حثيثًا إلى قلوبهن، كما كان الموتُ يسعى حثيثًا إلى الشيخ. والصبى قائم من وراء السرير يرى ويسمع ويمتلئ قلبه بما يرى وما يسمع، وتَنهل من عينيه دموعٌ صامتةٌ لعله لو رآها الشيخ لأرضته!

ولكن الشيخ يُسرع إلى الموت أو يُسرعُ إليه الموت، فهو يسمع بناته ولا يستطيع أن يرد عليهن أو يتحدث إليهن، فيكتفى بما لا بُد له من أن يكتفى به من الإيماء. ثم يُسرع إلى الموت ويسرع الموت إليه حتى يلتقيا فلا إيماء ولا حَرَاك، قد سكت الشيخ وسكت بناتُه لحظةً. ثم تمضى حياة الناس فى طريقها، فيشغل أهل الشيخ بالشيخ ليقطعوا هذه الأسباب الواهية التى بقيت بينه وبين الأحياء والأشياء، ليغيبوه فى قبره، وليفرغوا لشئونهم، وليحتفظوا منه بهذه الذكرى التى تملأ القلب كله، ثم تتضاءلُ شيئًا فشيئًا حتى تتخذ لها مكانًا ضيقًا خفيًا تستقر فيه، يُحسها الرجل ويجهلها أحيانًا.

والصبى محزونٌ كئيب، يذكر أمه، ويذكر جده، وينظر إلى حاضنته وينظر إلى عمه، ويفوض أمره بعد هذا إلى الله.

وقد شَمِله الله برعاية لا تفتُر، وكلأه بعناية لا تغفل؛ فلم يلق من الناس فى طفولته وشبابه شرًا ولا نُكرًا، ولا احتمل منهم ألمًا ولا مكروهًا، عَطف عليه عمّه كما كان يعطف عليه جده، حتى آثره بالمودة واختصه بالبر، وَلقى منه عمه مثل ما كان يلقى جده حبًا بحب وودًّا بود. وكان أبو طالب رجلَ مروءة وصدقٍ وحسنٍ وبلاء، ولكنه كان فقيرًا كثيرَ العيال، وكان يجد جهدًا عظيمًا فى إقامة عياله الكثيرين وسَدّ خَلاّتهم. فلما ضم إليه هذا اليتيم صَلُحَ أمرهُ وحسنت حاله، ووجد البركة والسعة فيما كان يُتاح له من القليل. كان يكسب لعياله ما يستطيع، ثم يجمعهم حوله فلا يستطيعون إلا أن يمسوه مسًا رقيقًا، ثم ينصرفون وقد استنفدوه وما زالوا جياعًا. فلما ضم الرجُلُ إليه ابن أخيه اليتيم لم يَزِدْ ما كان يسكب، ولكن الله بارك فيه وزكاه. فكان الرجلُ يجمع عياله، ومعهم يتيمه هذا، حول هذا القليل، لا يقومون إلا وقد أدركوا ما يدفع عنهم ألم الجوع ويُبلغّهم الرضا والاطمئنان.

وكذلك أنفق اليتيمُ طفولته وصباه بين هذين القلبين الرحيمين: قلب عمه وقلب حاضنته.

ولستُ أعرف صبيًا تأثر بحياة الصبا واحتفظ بحوادثه وذكرياته ما أقام فى هذه الدنيا، ووفى للذين برّوا به وأحسنوا إليه كهذا الصبي. ولم يكد يقدر على البر وإسداء المعروف وإظهار شكره للنعمة، واعترافه بالجميل، حتى ضرب للناس فى ذلك أروع الأمثال وأبلغها تأثيرًا فى القلوب.

أرضعته أمَةٌ لأبى لهب يقال لها ثُوَيْبة أيامًا قبل أن تأخذه حليمة. فلما علم ذلك من أمرها حفظ لها هذه النعمة وعرف لها هذا الجميل! فلم يكد يَقدرُ على شُكرها والبر بها حتى جهد فى ذلك، وإذا هو يحمل زوجه خديجة على أن تسعى عند أبى لهب فى أن تشترى منه هذه الأمة لتعتقها، فيأبى أبو لهب، فيتصلُ معروفُ الرضيع بأمه هذه ما أقام بمكة، حتى إذا هاجر إلى المدينة لم ينس أمه ولم يهملها، وإنما أرسل إليها الصّلات والكسوة من حين إلى حين. حتى إذا عاد من خيبر وقيل له: إن ثُوَيبةَ قد ماتت سأل عن قرابتها لينالهم بما كان ينالها به من المعروف، فأنبئ بأنها لم تترك أحدًا.

وحياةُ أهل البادية مملوءةٌ بالضنك حافلة بالشقاء. فانظر على حليمة تهبط بمكة تستعين بابنها على أثقال الحياة، فيكلِّم لها خديجة فتمنحها بعيرًا وأربعين شاة. وانظر إليها تستأذن عليه مرة أخرى، فإذا أدخلت عليه ورآها قال: أمَّى!أمى! ثم بَسط رداءه فأجلسها عليه! ثم أدخل يده من دون ثيابها فمس صدرها مسًا، ثم قَضى حاجتها. ثم نظر إليه بعد أن عَظَم وارتفع شأنه ودانت له العرب كلها، وقد نَصره الله يوم حنين على هوازن، فهزم الجند واحتوى المال وسبى الذرية والسناء، وقسم الغنائم بين المسلمين. وإنه بالجعرانة[1] صباحَ يوم وإذا وفدٌ من هوازنَ يُقبل عليه مُسلمًا منبئًا بإسلام مَن وراءه من الناس، وفى هذا الوفد عمُّه من الرضاعة، وإذا عمه يتحدث إليه فيقول: يا رسول الله، إنما فى هذه الحظائر من كان يكفُلك من عماتك وخالاتك وحواضنك، وقد حضاك فى جحورنا وأرضعناك يُشد بِنَّا. لقد رأيتك مُرضَعًا فما رأيتُ مُرضَعًا خيرًا منك، ورأيتُك فطيمًا فما رأيتُ فطيمًا خيرًا منك، ثم رأيتك شابًا فما رأيت شابًا خيرًا منك، وقد تكاملت فيك خلالُ الخير. ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتُك، فامتن علينا من الله عليك. فيجيبه: لقد استأنيتُ بكم حتى ظننتُ أنكم لا تقدُمون، وقد قسمتُ السبى وَجرَتْ فيه السهمان[2] فما كان منه لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وأسألُ لكم الناس. فإذا صليتُ بالناس الظهر فقولوا:

---

(١) الجِعرانة (بكسر الجيم وسكون العين وقد تكسر العين): موضع بين مكة والطائف.

(٢) السهمان: جمع سهم وهو النصيب والحظ.

نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله، فإنى سأقول لكم: ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وسأطلبُ لكم إلى الناس. فلما صلى الظهر قام الوفدُ، فأتم ما أمر به، ووفى لهم بوعده، وشفع لهم عند الناس(١)، فرُدّت عليهم نساؤهم وأبناؤهم، لم يأب ذلك إلا نفرٌ من الأعراب اشترى منهم ما كان فى أيديهم من السَّبى ورُدّ على أهله.

قلت لمحدثى: فإن هذا الوفاء بليغ التأثير فى النفوس، وأبلغ منه هذه الحيلة الطاهرة البريئة فى استخلاص السبى من الذين ملكوه؛ فيها وفاء، وفيها رَدٌ للحرية على آلاف من الناس، وفيها إقرارٌ للأمن والسلم فى قبيلة ضخمة قوية من العرب، وفيها تخليص القلوب من الضغينة والموجدة والحقد، تهيئتها لقبول الإسلام والنصح للمسلمين فى صدق وإخلاص. قال محدثى: نعم! ولكن له وفاءً آخر يملأ القلوب رحمة ويمزِّقها لوعةً وأسى؛ لأنه وفاء المحب الصادق فى الحب، والعاجز عن النفع الذى لا يملك لمن يُحب خيرًا. قلت: وكيف يجد العجز إلى هذا القلب العظيم سبيلاً؟ قال: إن لله قَدَرًا مهما تعظم القلوب فلن تغيره ولن تُبدله. لقد كان أشد الناس برًا بأمه ووفاء لعمه: مر بقبر أمه عام الحُديبية فاستأذن ربَّه فى أن يزور القبر، فأذن له، فزاره وأصلحه ومكث عنده حينًا، ثم استأذن ربه فى أن يستغفر لأمه فأبى عليه، فانصرف عن القرب باكيًا كئيبًا، وبكى المسلمون لبكائه، واكتأب المسلمون لاكتئابه، ودخل مكة عام الفتح ظافرًا منتصرًا. وبينما هو فى بعض مواضعها رأى أصلَ قبر فعطف عليه وأقام عنده، واستأذن فى الاستغفار لصاحب القبر فلم يُؤذن له، فانصرف محزونًا كئيبًا، وبكى فبكى الناس، وما رأى الناس يومًا أكثر باكيًا من ذلك اليوم(٢)! واختلط أمر هذا القبر على الرواة، فظنوه قبر أمِّه، وقبر أمِّه فى الأبواء. ومَن يدري! لعله قبرُ جدّه الشيخ. وعرض الإسلام على عمه وألح عليه، وكاد الرجل أن يقبل لولا حَميَّة الجاهلية فلما مات قال ابن أخيه: لاستغفرن لك، فلامه القرآن فى ذلك لومًا عنيفًا.

---

(١) طبقات ابن سعد جزء١ صفحة ٣٢ قسم ١ طبعة ليدن.

(٢) طبقات ابن سعد صفحة ٧٤ الجزء الأول، القسم الأول.

تبارك الله! رجلٌ يُخرج الله به أمةً كاملة من الظلمات إلى النور. ويفتح لها به أبواب الخير على مصاريعها إلى آخر الدهر، ثم يأبى الله عليه أن يستغفر لأمه وعمه، وأن ينقذ أهله الأقربين الذين أدّوه إلى الناس وحَمَوْه حتى أدّى الأمانةَ وبلَّغَ الرسالة[1].

(١) تفسير الطبري جزء ١١ من صفحة ٣٠ إلى ٣٤.

قلت لمحدثى: وماذا تنكر من ذلك وَعدلُ الله محتومٌ لا يقبل أخذًا ولا ردًّا، ولا تجوز عليه المصانعة ولا المحاباة؟ قال: لا أنكر شيئًا، وأعوذ بالله أن أنكر شيئًا وأنا أعلم أن الله قد تأذَنَ أنه لا يغفرُ أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. إنما أرثى للناس الذين يرون الخير فيجتنبونه، ويرون الشر فيتهالكون عليه. أرثى لهؤلاء الذين يبلغ بهم الضعفُ وَخَوَرُ النفوس أن يظلموا الأبرياء ويعتدوا على الوادعين ليؤثروا أهلهم وقرابتهم بما ليس لهم بحق. ولو قد حاول الناس أن يتأثروا المُثُلَ العليا ويتأسوا بالأسوة الحسنة لكان لهم فى مثل هذه القصة صارفٌ عما يجترحون من السيئات، ورادعٌ عما يقترفون من الآثام. هل تَرى أبلغَ فى تصوير العدل الصارم الحازم الذى لا يقبل هوادةً ولا يحتمل رفقًا، لأنه ليس موضع هوادة ولا رفق، من هذه الآية الكريمة التى يُلام فيه النبى والمسلمون حين استغفروا لمن لا مَطمعَ له فى المغفرة: ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِى وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)**﴾ [١]

---

(١) من سورة التوبة ، الآيتان ١١٣ ، ١١٤.